

أخلاق القرآن

العفو

للدكتور عبد الوهاب عزام

من أمور الدين أو الدنيا . وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما الخليفة المأمون العباسي . ورويت في العفو عند المقدرة أخبار نبي^ص عما يملك قلب الرجل العظيم من الحلم والعفو في الخطوب الجسام . كما أثر من استعطاف المؤمنين في مقام العقاب ما يذهب بالحفيظة ، ويوجب النفرة

كانوا يرون العفو وسيلة إلى استصلاح النفوس وإزالة الأحقاد ، وإحلال الروثام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام

قال خالد بن الوليد لسليمان بن عبد الملك : « إن القدرة تذهب الحفيظة ، وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب . فإن تمف فأهل العفو ، وإن تماقب فبا كان منا »

وقال رجل لبعض الأعماء : « أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك ، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي ، إلا نظرت في أمري نظراً من برئ أحب إليه من سقمي ، وبراءتي أحب إليه من جرمي »

وقال بعضهم : إن عاقبت جازيت ، وإن عفوت أحصنت ، والعفو أقرب للتقوى

والقرآن الكريم يحث على هذا الخلق الكريم ويهدي الناس إلى هذه الخلة التي تلتقي جهل الجاهل بحلم العفو ، وتشر المسء بخير الحسن

سمى الله تعالى نفسه العفو ، قال : فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفورا ؛ وفي آية أخرى : وهو الذي يقبل

العفو خاق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عن المجازاة ، ويتعالى عن أن يأنى للشر بالشر ويمزى الحيثة بالسيئة . العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب ، وتحمل المودة محل المداوة ، والروثام محل الخصام . ترى الرجل يؤدي في نفسه أو ماله فإذا قدر على خصمه استكبر أن ينزل إليه فيأخذه بجريرته ، وآثر أن ينفق ويرحم ، ووجد في هذا الإحسان من العزة والمظلمة والطمأنينة ما لا يجد في الانتقام ، وإفاء الجناية بجزائها

وإنما العفو عند القدرة . فليس الذي يصبر على الضم ، ويحتمل لثورة ، ويستسلم للظلم عفواً ، ولكن خائفاً ذليلاً . رحم الله أبا الطيب الذي يقول :

كل حلم أتى بتغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللثام
وقد قال تعالى في وصف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم
الذي هم ينتصرون » . وقال بعض المفسرين : « كانوا يكرهون
أن يستدلوا إذا قدروا عفواً »
وعطاء الناس يؤثرون العفو ما لم يجدوا فيه مفسدة لأمر

صدق الدكتور وأصاب في ذلك الزمان ، وكذب الأفياء وأخطأوا في كل زمان . ولقد ذكر الأوربيون لحكامهم أمثال هذه التنبؤات للثاقفة والنظرات للثاقبة ولم تذكر هذه النظرة للدكتور شميل بين قراء العربية الذين هم أحوج إلى التذكرو والاعتبار

فإذا كان صواباً قول بعض الأدباء المازحين للدكتور : « إنك يا صاح نكبة على الناس ، لأنك تخالفهم في كل ما يقولون » ... فأصوب منه جواب الدكتور على تلك التنحية الجافية حيث قال : « إن كنت أنا نكبة على الناس لأنني أخالفهم فك نكبة أعانيها وحدي من أولئك الناس وأنا واحد وهم أولف ؟ » .

هباس محمد العقاد

التي احتلها في الغرب لا يستغربان لمن يعلم أنهم منذ أكثر من نصف قرن ولا سيما في عهد امبراطورم الحالي يستمدون لهذه الحرب ويعدون لها العدة . بخلاف خصومهم فقد ثبت أنهم من قلة حذرهم منها وفراغهم من العدة لم يكونوا ينوونها ... فإذا كان الألمان حتى الآن أقوياء أشداء فذلك طبيعي ، وهم ما خاضوا غمار هذه الحرب إلا وكانوا على أتم الأهبة لها . لكن إذا كان الألمان وهم في منتهى قوتهم لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم ، وخصومهم في غفلة فير مستمدين ، فهل يرجي ذلك لهم بعد سنة وهم في تناقص وخصومهم في تزايد ؟ هذا أمر لا يقبله العقل ، ولا سيما إذا رأينا ما تقول إليه حلمهم يحصر للبحار ... ولهذا كله ترجع ونكرر القول أن انتصارات الألمان اليوم ليست إلا تطويلاً لأمد الحرب وأن مصيرهم في الآخر إلى الفشل التام »

إليهم يوم للفتح والقدره بدأ بمقاب ، ولا جازام بما فعلوا ولا بأقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفواً عاماً شاملاً وكان أكبر أعدائه أعظمهم نصيباً من عفوه ورحمته . قال : يا عسقر قرئش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . وفر صفوان بن أمية أعدى أعدائه خوفاً من ذنبه وبأساً من العفو ، فأرسل وراءه النبي من يؤمنه وأعطاه عمامة أمانة الأمان . فلما طلب منه أن يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه الناس أو يهاجر قال : أنت بالخيار أربعة أشهر ولا اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت أن تؤلب عليه القبائل وترد فتح مكة هزيمة خرج الرسول لحربها وكانت واقفة حينئذ التي لقي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة أول الأمر ثم وثب الرسول وأنماز إليه أنجاد أصحابه حتى أنزل الله سكينته ونصره . فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جناتهم ، جزام بالإساءة إحساناً وبالذنب عفواً . يقول الطبري :

أنى وقد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجوانة وقد أسلموا فقالوا يا رسول الله إنما أهل وعشيرة ، وقد أصابتنا من البلاء ما لا يحصى عليك ، فامتن علينا من الله عليك . فقام رجل من هوازن ... فقال : يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك (بني أنهم قوم حليلة مرضعة الرسول)

أمن علينا رسول الله في كرم فإنك المره ترجوه وفتنظر فقال رسول الله : أبنائكم ونساءكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أحبابنا وأموالنا ؛ بل ترد علينا نساءنا وأبنائنا فهم أحب إلينا . فقال : أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فإذا أنا صليت بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم

فلما صلى بالناس للظهر قاموا فتكلموا بالبنى أمرهم به . فقال رسول الله : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون : « وما كان لنا فهو لرسول الله » ؛ وقالت الأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » . وقال الرسول :

التوبة عن عباده ويمفو عن السيئات ويعلم ما تعملون ؛ وقال أيضاً : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويمفو عن كثير ؛ وقال : إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تصفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً .

وقد أمر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ؛ ويقول : فبأرحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . ونهى أن يماقب المسيء بجرمانه من الصدقة والبر فقال : ولا يأتل أولو الفضل منكم والسمة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليمفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم

وأجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو أقرب للخير فقال : « وأن تصفوا أقرب للتقوى . » كما قال في وصف المؤمنين : « والذين إذا أصابهم البزيم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب للظالمين . ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون للناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور . »

وقد أشاد القرآن بالمعفين عن الناس ، وبين عظم جزائهم في قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين للغيظ والمافين عن الناس والله يحب المحسنين . »

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً بأمر القرآن وتادياً بأدابه . قال رسول الله : « أسرفى ربي أن أصل من قطنى وأعفو عمن ظلمنى . »

فانظر إليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه ، وصناديد تريت طوع أمره ، وقد لقي ما لقي منهم أكثر من عشرين عاماً وفي كل بقعة من مكة والمدينة ذكرى ما لقي من ظلم وعدوان وأذى ، وفي كل جماعة من تريت رجال قد قسوا عليه وعلى أصحابه ونالوا منه ومن دينه ، وسدوا عن دعوته جهد طاقتهم . فإمد